

رجاء النقاش

بداية تحول كبير

بعد حرب ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٧ كان العرب يحركهم-
الامل في نشوب القتال مرة اخرى على الجبهات العربية ، لسرد
العدوان الاسرائيلي ، واذكر اني حضرت جلسة مع بعض الاصدقاء
من الادباء والمثقفين مع المستشرق الفرنسي الكبير « جاك بيرك » ،
وساله واحد منا عن رايه في الموقف فقال : اذا انتصر العرب فسي
الرد على العدوان الاسرائيلي فاني اشعر بالتفاؤل كإنسان ... واذا
انهزموا فاني متفائل كمؤرخ !

والحقيقة ان كلمة جاك بيرك المستشرق المحب للعرب والمؤمن
بفضيلتهم .. هذه الكلمة تعتبر من اجمل واصدق ما سمعت فسي
التعليق على الصراع بين العرب واسرائيل ..

ومعنى كلمات المستشرق الفرنسي ان : العرب اذا انتصروا في
معركتهم العاجلة ضد اسرائيل فان هذا النصر يدعو للتفاؤل ، اما
اذا لم ينتصروا ذلك الانتصار السريع .. فان التاريخ يدعو السى
التفاؤل .. ذلك لان اسرائيل تقف ضد حركة التاريخ ، بينما يقف
العرب ، بمدالة قضيتهم ، مع حركة التاريخ ..

اسرائيل تقوم على احياء كل الافكار والمواقف التي يؤكد التاريخ
انها في طريقها الى الزوال .

بينما يحمل العرب في اعماق موقفهم وتكوينهم الحضاري كل
العناصر والافكار التي يؤكد التاريخ انها يمكن ان تنتصر بل ويجب
ان تنتصر ..

اسرائيل تقوم على اساس ان ابناها هم « شعب الله المختار »
وهم افضل الناس في العالم .

وقد اكدت كل الافكار الكبرى التي ظهرت منذ آلاف السنين
على هذه الارض ، ان هذه الفكرة خاطئة .. وانه لا فضل لانسان
على انسان الا بشرفه وقيمه ومساهمته في الاضافة الى الحياة
والمجتمع ..

ولو كان بالامكان ان تنجح هذه الفكرة لنجح هتلر . فقد كان
هتلر هو الآخر يؤمن بأن « الجرمان » هم سادة البشر ، وهم صانعو
الحضارة ، بينما الآخرون هم مدمرون للحضارة او على احسن
الاحوال فانهم ناقلون للحضارة .

وكان هتلر يريد ان يضع احدى الجرمان فوق رؤوس العالم
كله ، وقد احدثت حركته زلزالا عاليا لا شك فيه .. ولكن هذه
الفكرة الخاطئة قد لقيت مصرعها لانها فكرة خاطئة ، وقد دفع العالم
ما يقرب من مائة مليون من البشر ليرد على هذه الفكرة الخاطئة ..
ورضي العالم بهذا الثمن الغالي ليثبت ان حكاية « الانسان المختار
التميز عن غيره من البشر » هي خرافة واكثوبة ..

والحركة الصهيونية في جوهرها لا تزيد بحال من الاحوال عن
تجديد للحركة النازية .. كانت النازية تؤمن بتفوق الانسان
الجرماني وتعتبره سيذا على جميع الاجناس البشرية ، والصهيونية
تؤمن بتفوق الانسان اليهودي وتعتبره سيذا يجب ان يمشي على
جثث العرب غير المتحضرين كما مشى المهاجرون الاوروبيون على جثث
الهنود الحمر في القارة الاميركية البكر بعد اكتشافها واكتشاف
ما فيها من كنوز .

وكان اليهود يرون نفس الرؤية : كانهم يرون في الوطن العربي
قارة مليئة بالثروات والخيرات وان الانسان الذي يعيش فوق هذه
الارض لا يستحق ما في الارض من نعم وخيرات وكنوز .
ولكن اليهود اخطاوا في تفكيرهم ... كما اخطا النازيون من
قبل ..

والغريب الذي يدعو الى التأمل : ان النازيين صبوا نقيمتهم
يوم انتشرت حركتهم في اوربا على اليهود ... وكان هتلر يقول
انه يكره شكل اليهودي ورائحته وسلوكه ، ويعتبره اقدر المخلوقات
البشرية .

وعندما تخلص اليهود بمساعدة العالم كله من النازية جاءوا
ليكرروا نفس الدور النازي ولكن مع العرب .

ويذكرني هذا الموقف بقصة شهيرة قدمتها السينما الاميركية
في فيلم ناجح ، واسم هذه القصة « ... من الذي يأتي على
العشاء » . وتقوم القصة على تصوير تجربة حب بين شاب زنجي
وفتاة بيضاء . ويلقى هذا الحب معارضة من اهل الفتاة ... ولكن
اكثر الاصوات اعتراضا على هذا الحب كان صوت « المربية الزنجية »
التي تعيش مع الاسرة البيضاء .

كانت هذه المربية الزنجية تستنكر اشد الاستنكار ان يفكر شاب
زنجي في حب فتاة بيضاء ... لماذا ؟ لان هذه المربية الزنجية
قد آمنت وتسممت بوجهة نظر اعدائها ومضطهديها ... لقد تسممت
بفكرة محددة هي ان الزوج اقل شأنا وقيمة من البيض ... وهي
تعتبر هذه الفكرة سليمة وصحيحة ، ومن هنا لا يجوز للزنجي الذي
ينتمي الى الجنس الاسود ... لا يجوز لهذا الزنجي ان يفكر في
المساواة الكاملة بينه وبين الجنس الابيض .

ووجه الشبه هنا هو ان اليهود قد تسمموا بفكرة الذين
اضطهدوهم وآمنوا بهذه الفكرة اشد الايمان .

انهم مثل النازيين الذين يضطهدون العرب لان العرب جنس
اقل قيمة واقل صلاحية للحياة من اليهود المتفوقين المتحضرين .

وزعماء اليهود الكبار يعبرون عن هذا الموقف تعبيرا مباشرا ..
واذكر اني قرأت في دراسة عن « بن غوريون » انه طول ما عاش
في فلسطين لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية لشدة كراهيته
للعرب ، رغم انه تعلم الاسبانية ليقرأ بها رواية سرفانتس الصالية
« دون كيشوت » .

على ان اليهود اذا كانوا يقيمون دولتهم اليوم على اساس
تفوقهم على الشعب العربي ، وهي فكرة خاطئة ، ولا بد ان تلقى
في نهاية الامر مصرعها التاريخي ، كما حدث للنازية من قبل ...
اقول ان اليهود لا يكتفون بهذه الفكرة الخاطئة المعادية لكل الافكار
الانسانية الكبرى ، بل انهم يقيمون بناء مجتمعهم على اساس من
افتراض « تفوقهم العسكري الدائم » ، وهم يعتزون بانهم قد هزموا
العرب في كل الحروب التي خاضوها منذ ١٩٤٨ الى اليوم .
وهذه فكرة خاطئة ولا يمكن ان يقبلها التاريخ ، وسوف تلقى

هذه الفكرة مصرعها التاريخي ايضا .

ولست اشك في ان المعركة الراهنة ، معركة اكتوبر العظيم
سنة ١٩٧٣ ، سوف تكون بداية لهذا التحول في المجال العسكري
بالنسبة لاسرائيل . ان الانتصار العسكري المؤقت لاسرائيل لا يمكن
ان يقلب حقائق التاريخ ، ولقد كان على العرب ان يفهموا اسرار
ضعفهم العسكري امام اسرائيل حتى يتحول هذا الضعف الى قوة
حقيقية .

وكانت اسباب الضعف العسكري دائما واضحة :

في حرب ١٩٤٨ كانت الرجعية تقود المعركة ... تتحدث عن فلسطين وعينها على مصالحها الخاصة ... فهذا حاكم يريد جزءا من الارض الفلسطينية ليزيد حجم مملكته التي تعيش تحت سلطانه ... وهذا حاكم يريد ان يتخلص من المشاكل في بلده - كما فعل فاروق - فارسل الجيش الى فلسطين لعله بذلك ينجس من ثورة الشعب والجيش ... ولا يمكن لمثل هذه الرجعية ان تنتصر في معركة كبرى من هذا النوع .

وفي ١٩٥٦ لم يكن احد يتصور ان يجد الجيش العربي المصري نفسه في مواجهة دولتين كبيرتين هما فرنسا وانكلترا بالاضافة الى اسرائيل .

وفي ١٩٦٧ كانت المفاجأة سببا رئيسيا للهزيمة ... وكان العرب في اغلب الظن يتصورون ان الضمير الدولي لا يمكن ان يسمح لاسرائيل باكثر مما اخذته قبل يونيو - حزيران - ١٩٦٧ . وكان هناك اخطاء عربية كثيرة في التفكير والتنظيم والسلوك جعلتنا نسقط منذ الضربة الاولى ...

ولكن الشعوب تتعلم وتستيقظ وتأخذ العبر والدروس .

ومن الصعب ان تعيد الاخطاء نفسها .

والعرب معهم سلاحهم القوي الحاسم الذي يمكن ان تنبع منه كل الاسلحة الصحيحة الفادرة ... هذا السلاح هو انهم اصحاب قضية عادلة .

اما اليهود فهم اصحاب قضية غير عادلة . وهذا بالضبط ما يعنيه المستشرق الفرنسي جاك بيرك بكلمته الرائعة حين يقول :

« حتى لو انهزم العرب فانني متفائل كمؤرخ » . نعم ... لان القضية العادلة لها النصر في النهاية كما يؤكد سير التاريخ . واذا عدنا مرة اخرى الى اخطاء اليهود التاريخية فاننا نجد في تحصنهم حول تفوقهم العسكري ما يفسر لنا قولا آخر لمفكر يهودي هو « ماكسيم رودنسون » ... يقول رودنسون : ان اليهود لديهم نزعة انتحارية تاريخية .

وتفسير هذه الكلمة هو انهم يضعون انفسهم دائما في مأزق حضارية تؤدي بهم الى الانتحار او ما يشبه الانتحار . فاذا كان وجودهم اليوم في فلسطين والاراضي العربية الاخرى معتمدا على التفوق العسكري ... فماذا يحدث لهم اذا استفاد العرب من اخطائهم القديمة وسيطروا على قوتهم العسكرية وتفوقوا على اليهود ؟ ان هذا الموقف - الذي لا بد ان يحدث - سوف يؤدي باليهود الى مأزق تاريخي يشبه الانتحار .

ان أي دراسة لما تدعيه اسرائيل فكريا وحضاريا وما تبني عليه وجودها سوف يخرج بنا الى نتيجة واحدة هي ان اساس اسرائيل كله خطأ في خطأ .

هذه هي الافكار الاساسية التي تقوم عليها اسرائيل والحركة الصهيونية ، وكلها افكار خاطئة ترفضها حركة التاريخ الرئيسية .

دولة تقوم على اغتصاب شعب آخر .

ومجتمع يعني ان له حقوقا تاريخية وحقوقا دينية في الارض العربية ... وليس له حقوق تاريخية ولا حقوق دينية بما يسمح له بطرد شعب باكماله والحلول محله .

انني أقصد من هذا الاستطراد التاريخي ان التي صودا على الواقع الراهن .

فاسرائيل تعزز جلورها في الاخطاء التاريخية والفكرية والانسانية .

بينما يعزز العرب جلورهم في مواقف سليمة وافكار صحيحة وقضايا عادلة مهما كانت هزائمهم واخطاؤهم الجزئية في حق انفسهم .

ومن هنا يكون منطلق التاريخ في صف العرب ، لانه في صف الصواب والعدالة ، وليس في صف الخطأ والانحراف والاضطهاد للبشر .

ومن الغريب ان يكون العرب بالذات هم اكثر الشعوب الذين عاملوا اليهود معاملة انسانية كريمة خلال مراحل التاريخ المختلفة . ففي الحضارة الاسلامية كان اليهود يحتلون مكانهم كأفراد وجماعات حسب كفاءتهم وقدرتهم على المساهمة في التقدم .

وفي التاريخ الحديث كان اليهود يعيشون في شتى اجزاء الوطن العربي في امان واحترام يلقونه من الجميع .

وفي سنة ١٩٢٤ قام سعد زغلول زعيم ثورة مصر وبطلها في ١٩١٩ بتأليف اول وزارة وطنية ، وكان من بين اعضاء هذه الوزارة « يوسف قطاوي باشا » اليهودي المصري الذي كان وزيرا للمواصلات ثم وزيرا للمالية .

وفي جامعة القاهرة وهي أقدم جامعة عربية حديثة كان هناك استاذان كبيران يلقيان كل الاحترام والتقدير من العرب همسا : اسرائيل ولفنسون وكان يسمى نفسه باسم مستعار هو « ابو ذئيب » و « بول كراوس » ..

وهكذا ... فالعرب لم يرفضوا سيف الاضطهاد ابدا ضد اليهود ، ولم يلقوا امامهم باب الاندماج في المجتمع العربي بصورة سليمة . ومع ذلك فالعرب مطلوب منهم ان يكونوا - برضاهم - ضحايا المؤامرة الصهيونية الاستعمارية المشتركة .

ولم يكن بالامكان ان يتم هذا الامر ... ولا كان بالامكان ان يستمر اذا تم . والموقف الراهن الذي تمثله معارك اكتوبر العظيمة على جبهة مصر وجبهة سوريا هو البداية السليمة للرد على كل الاخطاء التي وقعت فيها اسرائيل منذ زمن طويل بمساندة الاستعمار ومساندة اخطاء العرب ضد انفسهم .

فاسرائيل تمثل مجموعة من القضايا الخاسرة وغير العادلة .

والعرب يمثلون مجموعة من القضايا الصحيحة والعادلة .

والتاريخ لا بد ان يكون في صف اصحاب القضايا العادلة ، وخاصة اذا عرفوا كيف يدافعون عن هذه القضايا ، وآمنوا بها ايمانا صحيحا لا ارتباك فيه ، وعرفوا كيف يفهمون الواقع الذي يحيط بهم على حقيقته ..

وقد ادرك العرب بعد تجارب مريرة ما ينبغي ان يدركوه .

ادركوا ان قضيتهم عادلة حتى في جنورها التاريخية القديمة .

وادركوا ان العدالة وحدها لا تكفي للانتصار وحماية الحقوق ..

فلا بد ان يكون العادلون اقوياء ومدججين بالسلاح .

ان العدالة الرقيقة الودعية المثالية لم تعد تقنع احدا ... ولا حتى اصحابها .

ولا بد للعدالة ان تكون شجاعة وان تنصدي لمن يريدون تشويه وجهها الجميل .

ومن حق العرب ان يتفادوا ... لانهم في الواقع يقفون في الموقع السليم والصحيح ، رغم ما تعرضوا له من ضربات وهزائم .

من حقهم ان يتفادوا لان التاريخ معهم .

اما الذين يقولون ان هذه الحرب هي تمثيلية فهم في اقل القليل مخطئون . ان الدماء لا يمكن ان تكون جزءا من تمثيلية .

عندما تنطلق الرصاص الاولى وتسقط القذرة الاولى من الدم ... عندها لا يمكن ان يكون الامر لعبا او مسرحية من اخراج « كينسجر »

او من هم اقوى منه ...

وفي اعتقادي ان معارك اكتوبر العظيم سوف تكون بالدرجة الاولى درسا للعرب انفسهم قبل ان تكون درسا للآخرين ، فالهزيمة الحقيقية بعد ١٩٦٧ كانت في الحقيقة قد لحقت بنا في اعماق نفوسنا لا على جبهات القتال .

كنا قد فقنا الثقة العادية بالنفس . كنا نشعر بالتهيب ، وكنا نشعر ان أي حركة من جانبنا سوف تلقى ردا عنيفا من العدو .

كانت عوامل التدمير في داخلنا وعوامل البقاء تعطل .
ولم يكن شيء من هذا صحيحا ... ولم يكن بالامكان ان يستمر .
ان القضية الآن هي ان نتذكر الحقائق الرئيسية وان نؤمن بها
ونثق فيها :

علينا ان نتذكر ان فلسطين عربية بالواقع والتاريخ معا .
وعلينا ان نتذكر ان العرب مائة مليون ، وعلينا ان نتذكر ان
بيوت السويس المهتمة وان العلم الاسرائيلي الذي كان يرفرف على
الضفة الشرقية للقناة كان يستفز قوة الحياة في الارض ... ولقد
زرت هذه المواقع عدة مرات بعد 1967 وكنت اشعر ان قوة الحياة
ترفض هذا الواقع الاسرائيلي الموضوع في غير مكانه ...
كنت اشعر ان كل شيء يرفض حتى التراب والصخور .
وكان علينا ان ننتظر لحظة بداية جديدة ، وقد جاءت
اللحظة ...

فاذا قالت اذاعة لندن :

ان العرب متفائلون بدون سبب .. فهي تخطيء التقدير .
لان الموقف العربي الاصلي يقف في نقطة عميقة من نقاط التفاؤل
التاريخي بالنصر في النهاية .

واذا قال البعض :

انها تمثيلية من اخراج « كيسنجر » ، فان شهداء سيناء
والجولان يقولون لنا باللون الاحمر : لا ... ان هذا كذب غير
معقول .

وما اصدق الشهداء ...

لان دماء الشهداء ليست ولن تكون دماء تماسيح .
واذا قال قائل :

واين السلاح الكافي ؟ .. فان الاجابة الوحيدة هي ان نقرأ
ما يقوله التاريخ ... من ان نتائج الحروب دائما تكون حسب نوع
المقاتلين لا حسب نوع السلاح ...

البلاغ ١٥ تشرين الاول

الغزوة الثالثة

لا بد للعرب ان ينتصروا في هذه المعركة التي يخوضونها
اليوم ...

وليس للعرب فرصة للتقدم والمشاركة في بناء الحضارة
الانسانية بدون هذا النصر . وهذه دائما عبرة التاريخ في هذه المنطقة
من العالم والتي اصبحت اليوم معروفة باسم الوطن العربي .

فكلما ضعف شعب هذه المنطقة وتخلى بسبب هذا الضعف عن
دوره الحضاري زحفت عليه موجة استعمارية لتقتل ارادته وتسيطر
على كل شيء في ارضه وحياته ...

وهنا تنتهي مشاركة هذه المنطقة من العالم في حضارة الانسان
وتراجع الى الوراء .

وعندما يستيقظ شعب هذه المنطقة ليهلا الفراغ في بلاده
بنفسه فانه يطرد الموجة الاستعمارية ، ويساهم في الحضارة مساهمة
بارزة متميزة .

وقد تعرضت هذه المنطقة لثلاث غزوات كبيرة :

والباحثون في تاريخ هذه المنطقة من العالم يكتشفون ان المعركة
الراهنة هي الحلقة الثالثة من الغزوات التاريخية الكبرى ضد شعب
هذه المنطقة .

كانت المعركة الاولى او الغزوة الاولى هي غزوة الاسكندر الاكبر ،
فقد عبر الاسكندر البحر الى شواطئ مصر ، واجتاح الشرق ، ومن

يومها بدأت السيادة الغربية على المنطقة وانسحق سكان المنطقة امام
الغزاة الوافدين من وراء امواج البحر الابيض المتوسط .

وظلت المنطقة اسيرة لليونان والرومان حتى ظهرت الموجة
العربية الكبرى مع ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد ، وامتدت
الموجة الحضارية العربية بقوة واستطاعت ان ترد غزوة الفرب
الاولى .

وانطوت صفحة الغزاة في هذه المنطقة . ويومها بدأ العرب
يلعبون دورهم المضيء البارز في تاريخ الانسان .

ثم ضعف العرب وتمزقوا وبدأ الفراغ من جديد يظهر في الوطن
العربي .

وعلى الفور ... ونتيجة طبيعية لهذا الفراغ الحضاري جاءت
الغزوة الثانية من وراء البحر الابيض المتوسط ايضا .

وكانت هذه الغزوة الثانية هي غزوة الصليبيين ... جاءوا
اليها من الغرب وافاموا في الوطن العربي اكثر من مائة سنة ،
وارادوا ان يطفئوا شعلة الحضارة العربية في المنطقة ويفضوا على
الانسان ويحولوا العرب الى تابعين .

وظهر صلاح الدين ليرد العرب ويرد الغزوة الثانية عن طريق
تعبئة القوى الداملة للامة العربية .. روحيا وماديا .

وبعد انتهاء هذه الغزوة على اثر معركة صلاح الدين العظيمة
بدأت مرحلة جديدة من اليقظة والنهضة والنمو واحرام الاسان
العربي لنفسه ولامكانياته ثم اقباله على المساهمة في حضارة
الاسان .

واخيرا جاءت الغزوة الثالثة الى الوطن العربي على شكل موجات
من فرنسا وانكلترا ... وكانت بداية الغزوة هي الحملة العرسية
على مصر سنة 1898 ، وظلت هذه الغزوة من يومها تأتي اليها في
شكل موجات متتالية حتى استقرت في شكل « دولة اسرائيل » .

الفرب الاستعماري من وراء دولة اسرائيل يريد مرة اخرى القضاء
على هذه المنطقة وتحويلها الى منطقة تابعة ، على تحويل الانسان
العربي الى انسان من الدرجة الثانية .. يخدم الفرب ، ويقدم اليه
البتترول والاسواق ، دون ان يكون سيدا لمصيره او مساهما اساسيا
في خلق الحضارة الانسانية .

ولن تكون لنا حياة حقيقية الا اذا استطعنا ان نقف في وجه
الغزوة الجديدة ونقضي عليها ... لا حياة للعرب ، ولا أمل لهم ،
بدون خوض هذه المعركة الكبيرة والانتصار فيها .

اذا انتصرنا ، ولا بد ان ننتصر ، فسوف يبدأ عصر عربي جديد
فيه الكرامة والامل للانسان في ارضنا ، وفيه القدرة على المساهمة
الحقيقية في حضارة هذا العصر ...

تماما كما حدث بعد انتصارنا الباهر على الغزوة التي بدأها
الاسكندر وانهاهاها العرب تحت راية الاسلام .. وكما حدث في الغزوة
الثانية التي قام بها الصليبيون وفضى عليها العرب بقيادة
صلاح الدين ..

وتماما كما ينبغي ان يحدث اليوم تحت راية الوحدة والتقدم
والعدل والحرية .

انها الغزوة الثالثة التي بسدت بالحملة الفرنسية وانتهت
باسرائيل ولا بد من القضاء عليها لنبدأ الحياة .

ولعل هذه الغزوة الثالثة التي تمثلها اسرائيل هي اهن الغزوات
واقلها خطرا .. لو عرفنا كيف نقرأ التاريخ .

على ان العبرة في الغزوات الثلاث - مهما اختلف حجمها -
واحدة ..

لا بد ان ننتصر على هذه الغزوة لننهض ونتحرر ونتقدم ونتوحد .
ولا نهضة ولا تقدم ولا حرية ولا وحدة بدون هذا النصر .

الاحرار

٢٣ تشرين الاول